مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، المجلد 26، العدد 8: 2018.
Journal of University of Babylon for Humanities, Vol. (26), No. (8): 2018

# The Vision of Death From a Collective Perspective Among the Poets of the Middle East in the Middle Ages

**Hadi Ali Hadi Almuaab** **Karim Hassan Janana Al- Lami**
*College of Education/Al-Mustansiriya University*
hadi.ali@uobabylon.edu.iq Kareem303060@yahoo.com

**Submission date**:21 /5/2018 **Acceptance date**: 3 /7/2018 **Publication date**: 20/12 /2018

## Abstract

This research deals with the problematic nature of the intellection visions that are formed by the poets about the death from a collective perspective and we mean the collective of the vision of death contained in the poetry of the lament of cities and the lament of religious symbols such as Imam Hussein (peace be ubon him). Since the vision of death formed in the mines of poets should be distinct and different when it comes to important and collective symbols and a community like the city and Ahalbait (peace be ubon them) which we tried to follow him for discovering the poetic vision was simple and its temperament do not live up to the level of tragedy that hit Baghdad or tragedy of Karbala. the living reality of the crisis that afflicted the Arab culture in the middle ages was fueled by its poetic culture and its moral quality until it became flat and low-handed about achieving high technical standards.

**Key words**: Middle ages ، lament cities ،lamentation of Imam Hussein (peace be ubon him) ،collective vision of death.

# رؤية الموت من منظور جماعي عند شعراء المشرق العربي في العصر الوسيط

**كريم حسن جنانه اللامي** **هادي علي هادي**
*كلية التربية/الجامعة المستنصرية*

## الخلاصة:

يتناول هذه البحث إشكالية مهمة وهي إشكالية الرؤى الفكرية المتشكلة لدى الشعراء حول الموت من منظــور جمــاعي، ونقــصد بالمنظور الجماعي رؤية الموت المتضَمَنة في شعر رثاء المدن ورثاء الرموز الدينية كالإمام الحسين(عليه السلام) إذ ان رؤيــة المــوت المتشكلة في نفوس الشعراء ينبغي ان تكون متميزة ومختلفة عندما يتعلق الأمر برموز مهمة وجماعية مثل المدينة وأهل البيت وهو أمر حاولنا تتبعه من اجل الكشف عن طبيعة الرؤية الشعرية وخصوصيتها وحاولنا الربط بين الرؤية الشعرية و مجموعة الظروف الحياتيــة والعوامل الثقافية المؤثرة في صياغة الرؤى عند الشعراء في تلك الفترة.

**الكلمات الدالة:** العصر الوسيط، رثاء المدن، رثاء الإمام الحسين(عليه السلام)،رؤية الموت من منظور جماعي

by University of Babylon is licensed under a Journal of University of Babylon for Humanities (JUBH)
Creative Commons Attribution 4.0 International License

## المقدمة

يتقفى هذا البحث مواقف ورؤى الشعراء لقضية الموت من منظور كلي " بما أنّ الشعراء ينمازون بكونهم أكثر قدرة على الإحساس بالقضايا الكبرى من الناس الاعتياديين" [1ص231]، وما نقصده بالمنظور الكلي هنا هو رؤية الموت بوصفه واقعا على رموز جماعية لا فردية،أما الرموز الفردية فهي تلك المتمثلة بالشخوص،(ملوك أو أصدقاء أو غلمان)، وأما الرموز الجماعية فيندرج تحتها المدن والرموز الدينية مثل أهل البيت (عليهم السلام)،لان المدن لا تتشكل في وعي الفرد إلا بوصفها رمزا للمجموعة البشرية التي تعيش فيها وتحتضنها هي بدورها، وهي بالضرورة موسومة بسمات مستمدة من هذه المجموعة البشرية على أن الأمر محكوم بمبدأ التأثير المتبادل أيضا، أي إن المجموعة البشرية الساكنة في هذه المدينة متأثرة هي الأخرى بطابع المدينة ومناخها العام وجوها الحاكم بل هي نتاج لها.

لا بد من القول هنا " إن المدينة لغة الإنسان في حربه ضد الطبيعة وأخطارها التي تهدد حياته، ثم أصبحت المدينة فيما بعد مركز ثقل إنساني، فاستقطبت جهد الإنسان واستدرجته، وبدأت مفاتنها وشرورها الأسرة تأخذ شكل الغواية التي يصعب مقاومتها"[2ص19].

وينبغي التفريق بين أن تكون المدينة موضوعا شعريا وبين أن يكون رثاؤها موضوعا شعريا، أما رثاء المدن فهو قديم وهو ما يستحوذ على اهتمامنا هنا، وهو فن يستمد تصوراته وأفكاره ورؤاه من بواكير الشعر العربي التي وقف فيها الشاعر على الأطلال وبكى الآثار الدارسة وأيام الوصال الجميلة التي مرت واندثرت؛ ينظر:[3ص19].

إنّ من الصعب جدا القول بان المدينة من حيث هي معمار وكيان ثقافي كانت حاضرة في الشعر العربي القديم في مختلف عصوره " لان المدينة كموضوع فكرة شديدة المعاصرة، ترتبط بالقرن العشرين ومنجزاته، والإشارات السابقة لا تعدو أن تكون مواقف متناثرة لم تخلق من المدينة موضوعا شائعا، حيث ينطلق الشعر المعاصر من تصور جديد للكون والمجتمع والإنسان، بفعل من الثورة العالمية في مستوياتها الاجتماعية والفكرية والتكنولوجية " [2ص10].

شعر المدينة مرتبط إذاً لا ببنائها العمراني فقط بل هو مرتبط بمعمارها الثقافي الذي ينبني في وعي الإنسان بشكل مقابل وموازٍ لبنائها المادي على الأرض، وهو أمر لم يتحقق بصيغته الكاملة إلا في وقت متأخر من عمر الحضارة البشرية.

وبناء على ما تقدم لا يمكن وصف بعض النماذج التي وصلت إلينا من الشعر العربي في التعبير عن العلاقة بالمدن والشوق لها والتفجع لفراقها إلا على انه نوع من الحنين لا مرتبة من الوعي بالمدينة على وفق المفهوم الحديث، بل نوع من الحنين فقد " أحب الشاعر العربي مدينته، وعاملها معاملة الإنسان حبيبته، فمدحها ووصفها وفخر بها، وعاتبها ورثاها، بل وحتى هجاها، ولا تخفى الصلة الحميمة بين الإنسان ومدينته وبلده وبيته"[4ص25]. ان هذا الفهم لدور المدينة في حياة الإنسان لا يتطلب جهدا فكريا ولا اشتغالا ذهنيا عاليا كما هو الوعي بالمدينة. فشعر رثاء المدن يكشف عن العلاقة العاطفية بين الإنسان والمكان، وهي علاقة لا تعدو أن تكون في أقصى درجاتها عاطفية مستمدة من الإحساس بالأمان الجزئي وتوفير الاحتياجات الرئيسة التي يتوقف عليها عيش الإنسان " فهي مسكن الإنسان الطبيعي، وهي المكان الإنساني الأفضل المبني لسعادته، شأنها في ذلك شأن كل تجمع بشري كالقرية أو البادية في أول الأمر..... ولقد كان تكونها تلقائيا وبطيئا في المراحل الأولى، ثم تقنيا حثيثا في مراحل متقدمة " [5ص19].

ولا نريد هنا الاستغراق في هذا الجانب النظري من الحديث حول المدينة ودورها في حياة الإنسان ومسيرته، بل ما يهمنا هو التركيز على رؤية الموت المتمخضة عن شعر رثاء المدن في العصر الوسيط وهو ما سنحاول بيانه في الصفحات القادمة من هذا البحث.

والمحور الثاني في رؤية الموت من منظور جماعي هو شعر رثاء أهل البيت (عليهم السلام) لأننا لا يمكن أن نتعامل مع شعر كهذا تعامُلَنا مع غيره من شعر الرثاء الموجه إلى أناس عاديين، ليسوا على هذه الدرجة من القداسة والاعتبار، إذ من غير الممكن النظر إلى أهل البيت (عليهم السلام) كرموز فردية تعبر عن مواقف خاصة وبالتالي تتحدد رؤية الشاعر لمفهوم الموت هنا على وفق منظور فردي، بل على العكس من هذا إذ إن أهل البيت (عليهم السلام) يمثلون رموزا جماعية بامتياز، يشترك في تقديرها جمع كبير من البشر لأنهم يمثلون النموذج الكامل للإنسان والتجسيد الحي للأخلاق والقيم والمثل، وهم حلم يراود جماعة بشرية كاملة وينبغي بل يتوجب على الشاعر من هذا المنطلق اعتماد رؤية كلية في تصوير مواقف الموت التي مر بها أهل البيت (عليهم السلام).

وشعر الرثاء في العصر الوسيط يشتمل على رثاء كبير لأهل البيت (عليهم السلام)" فليس في الدنيا وقعة كوقعة الحسين (عليه السلام) هزت العالم هزا عنيفا وأثرت أثرها الكبير في النفوس وأهاجت اللوعة واستدرت الدمعة بل هي التي كونت فيهم هذا الأدب الثر والشعور الفياض وخلقت منهم اكبر عدد من الشعراء حتى قيل :إن الأدب شيعي وقيل: هل وجدت أديبا غير شيعي.ذلك لان الكبت والألم يدفعان الإنسان للنظم وتصوير الحال بلسان المقال ومادام المرء يشعر بالثأر وحرارة الثكل لا ينام عن ثأره فيندفع مصورا حاله معددا آلامه مسامرا أحزانه في لياليه وأيامه وفي خلواته ومجتمعاته" [6: 17/1]، إن هذا الاقتباس يصور في الحقيقة الحالة الحرجة الكامنة في الحد الفاصل بين الاعتقاد والفعل أو بين الاعتقاد والقدرة على تطبيق ذلك الاعتقاد، فان العهد الطويل من الكبت والحرمان والظلم الذي تعرض له أتباع أهل البيت (عليهم السلام) قد دفع الشعراء إلى تحويل هذه الطاقة الكامنة إلى موقد لإشعال فتيل الشعر، فقد كان رثاء الإمام الحسين (عليه السلام) المتنفس الوحيد للتعبير عن المظالم والمآسي التي لحقت بالأمة ؛ينظر:[7ص193]

إننا نجد أنفسنا في العصر الوسيط أمام عدد كبير من القصائد التي نُظمت في هذا المجال إذ " إن الشعر الذي قيل في يوم الحسين (عليه السلام) يحتاج إلى مئات المجلدات إذا أردنا استقصائه وجمعه (.....) هكذا كانت ثورة الحسين (عليه السلام) غطت بسناها المشارق والمغارب واستخدمت العقول والأفكار فهي نور يتوهج في قلوب المسلمين " [7ص18].

إن العدد الكبير من القصائد التي نُظمت في رثاء الإمام الحسين(عليه السلام) ودارت حول واقعة الطف لابد أن توفر مادة جيدة لدراسة تصور الشعراء حول الموت عندما يتعلق الأمر بقضية تمس الإنسانية جمعاء، وليست تأثيراتها مقتصرة على الجانب الفردي عند الإنسان فهي لا تتعلق بإثارة حزن خاص بالشاعر أنما نحن هنا أمام ما يمكن تسميته بـ (الحزن الجماعي)، أي إن تعبير الشاعر لا يقتصر على تأثيرات الواقعة على ذاته هو كشاعر فقط،لان الواقعة ذات أبعاد شاملة وعامة، وينبغي إذا أن تكون استجابة الشاعر بمستوى الطابع الكلي للحادثة.

وسنتوقف أولا عند شعر رثاء المدن وبالتحديد رثاء مدينة بغداد اثر النكبة التي أصابتها من جراء احتلال المغول، يقول ابن الأثير مصورا حجم الخراب والفاجعة التي حلت اثر غزو المغول " ولقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة، كارها لذكرها...فمن ذا الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين ومن ذا الذي يهون عليه ذلك ؟ فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل حدوثها وكنت نسيا منسيا" [8: 358/12]. فلا خلاف حول

حجم الخراب الذي تسبب به الغزو المغولي لبغداد، فطفق الشعراء ينظمون القصائد في هذه الحادثة، ونحن نسعى هنا إلى بيان رؤية الشعراء للموت عبر هذه المراثي، وكيف نفذت هذه الحادثة إلى نفوسهم وما هي تصوراتهم حول الموت التي نتجت عن انعكاس هذه الحادثة ذات الطابع الكلي على الصوت الخاص للشاعر.

يبرز هنا اسم الشاعر شمس الدين الكوفي كواحد من أكثر الشعراء تناولا للحادثة إذ نظم عددا من القصائد حاور فيها المأساة وتناول أبعادها فنراه يقول في قصيدة له :[9ص43]

أَيْنَ سَارْتَ تُرَى حُدَاةُ العِيْسِ ... بِحَبِيْبِيْ وَوَاحِدِيْ وَأَنِيْسِي؟
حِيْنَ سَارُوْا حثُّوْا الرِّكَابَ وَلَمْ يُلْـ ... ـوُوا عَلَى رَاْحَةٍ وَلَا تَعْرِيْسِ
جَرِّعُوْنِي مِنْ الفِرَاقِ كُؤُوْسًا ... مُرَّةً مَا أَمَرَّهَا مِنْ كُؤُوْسِ
فَتَبَدَّلْتُ بَعْدَ عِزٍّ بِذُلٍّ ... وَتَبَدَّلْتُ مِنْ نَعِيْمٍ بِبُؤْسِ
وَشَرَابِي دَمْعِي وَزَادِي حُزْنِي ... وَسَقَامِي مِنْ بَعْدِهِمْ مَلْبُوسِي
أَنَا أَشْكُوْ أَمْرَاضَ حُزْنٍ وَشَوْقٍ ... كُلّ مِنْهَا عِلَاجُ جَالِينُوْسِ

إلى أن يقول فيها :

يَا دِيَارَ الأَحْبَابِ مَا صَنَعَ الدَّهْـ ... ـرُ المُعَادِي بِرَبْعِكِ المَأْنُوْسِ
أَيْنَ تِلْكَ الوُجُوْهُ فِيْكِ مُنِيْرَا ... تٌ حِسَانٌ مُضِيْئَةٌ كَالشَّمُوْسِ
كُلُّ وَجْهٍ كَالشَّمْسِ وَلَكِنْ سَرَى مِنْ ... أَوْجِ سَعْدٍ إِلَى حَضِيْضِ النُّحُوْسِ
قَدْ وَقَفْنَا فِي الدَّارِ سَكْرَى وَلَكِنْ ... سُكْرُ حُزْنٍ لَا سَكْرَةُ الخَنْدَرِيْسِ
حِيْنَ أَضْحَتْ عَوَاطِلًا بَعْدَمَا كَا ... نَتْ تُجَلَّى فِيْ زِيْنَةٍ كَالعَرُوسِ
مَا آنْتِفَاعِي مِنْ بَعْدِ بُعْدِهُمْ بِوُقُوْفِيْ ... فِيْ مَحَلٍ بَالٍ وَرَسْمٍ دَرِيْسِ؟

تتجاذب هذه القصيدة موضوعاتٌ عدة، يبدؤها الشاعر بسؤال ديار أحبابه الذين رحلوا وهو هنا سكان بغداد الذين شردتهم ويلات الغزو ومآسي الحروب، وما تسبب به رحيلهم من آهات وويلات ثم يخلص إلى وصف ما جرى على بغداد في أبياته، إذ يقول:

قَدْ وَقَفْنَا فِي الدَّارِ سَكْرَى وَلَكِنْ ... سُكْرُ حُزْنٍ لَا سَكْرَةُ الخَنْدَرِيْسِ
حِيْنَ أَضْحَتْ عَوَاطِلًا بَعْدَمَا كَا ... نَتْ تُجَلَّى فِيْ زِيْنَةٍ كَالعَرُوسِ

وفي الحقيقة لا تنطوي هذه القصيدة في رأينا على مفاهيم شعرية عالية للموت على الرغم من أنها نُظمت في رثاء مدينة تعرضت لشتى أنواع الإبادة والتدمير، ولا أكثر من الموت فيها، فهي قصيدة يغلب عليها طابع الركاكة وبساطة التصوير وبث مجموعة من الرؤى والأفكار المتوارثة والمستمدة من التراث الشعري العربي فيما يخص الوقوف على الأطلال ومخاطبة الأحبة الراحلين وبيان الظروف الطارئة على الشاعر جراء ذلك، وغيره من صور الوقوف على الأطلال المنتشرة في الشعر العربي، فعلى الرغم من هول الفاجعة،لم يتمكن الشاعر وهو شاعر من عيار جيد قياسا إلى شعراء عصره لم يتمكن من إنتاج رؤى متميزة حول الموت في قصيدة رثائية بل لم

تتضمن أي رؤى من الأساس، ونحن لا نجانب الصواب في هذا الرأي، ولشمس الدين الكوفي قصيدة أخرى يقول فيها أيضا: [9ص50]

أَحْبَابُ قَلْبِيْ نَأَوُا فَالدَّمْعُ يَسْتَبِقُ ... وَكَمْ سَأَلْتُهُمُ رِفْقًا فَمَا رَفِقُوْا
ضَاقَتْ بِي الأَرْضُ مُذْ جَدَّتْ رِكَابُهُمُ ... وَأَظْلَمَ الجَّوُّ فِي عَيْنَيَ وَالأُفُقُ
كَانُوْا جَمَالِي وَتَاجِي فِي المَلَا وَشُمُو ... سِيْ فِي الدُّجَى وَأَنِيْسِي إِنْ دَجَى الغَسَقُ
بَانُوْا فَجَفْنِيَ مَقْرُوْحٌ وَدَمْعِيَ مَسْـ ... ـفُوْحٌ وَقَلْبِيَ مَجْرُوْحٌ وَمُحْتَرِقُ
وَاللهِ مَا دَارَ هَذَا البَيْنُ فِي خَلَدِي ... وَلَا ظَنَنْتُ بِأَنَّا قَطُّ نَفْتَرِقُ
إِنَّ الَّذِيْنَ بِكَاسَاتِ المُنَى شَرِبُوْا ... صُبْحًا فَمَصْطَبِحٌ مِنْهَا وَمُغْتَبِقُ
بَيْنَا هُمُ يَشْرَبُونَ الرَّاحَ مَا شَعَرُوا ... إِلَّا وَهُمْ بِبَقَايَا الكَأْسِ قَدْ شَرِقُوْا
ضَاقَتْ مَنَازِلُنَا مِنْ أَجْلِ بُعْدِهُمُ ... كَأَنَّمَا دُوْرُنَا مِنْ بَعْدِهُمْ خَلَقُ
يَا سَادَةً تَرَكُوْنِي هَائِمًا قَلِقًا ... وَلِي دُمُوْعٌ عَلَى الخَدَيْنِ تَنْدَفِقُ

وتدور هذه القصيدة في مدار القصيدة السابقة فالشاعر يبتدئ أيضا بذكر فراق الأحبة وما ترتب على نفس الشاعر من نتائج نفسية أليمة، وهو وإن كان يصور الأحباب وكأنهم رمزٌ وتمثلٌ للحياة وبعدهم بالنتيجة سلبٌ لتلك الحياة أو هو تمظهر للموت إذا ما ذهبنا إلى تأويل بعيد نوعا ما، ولكن لا يكفي للقول أن القصيدة عبرت عن رؤية كلية للموت ناتجة عن خراب المدينة وانهيارها، فقراءة القصيدة لا توصل إلى ان رؤية الموت فيها والإحساس به ناتجة عن خراب المدينة، بل إن مبعث التشاؤم والحزن منحصر في مجال فراق الأحبة، فكل الخراب والهدم الذي تعرضت له المدينة يتلخص ويتحدد في هذا المستوى من دون غيره، الأمر الذي يحيل الرؤية إلى مجال ضيق، وكأن الشاعر ينظر إلى مأساة عظيمة ذات طابع كلي أصابت مدينة تمثل حاضرة عالمية في زمانها، ينظر إلى هذه المأساة من ثقب ضيق لا يكفي لتشكيل تصور عميق كفاية حول هذه القضية.

إن هذا الأمر عائد في جانب كبير منه إلى المستوى الثقافي والموهبة الضعيفة لدى الشعراء، وذلك الواقع ينعكس بشكل مباشر على النص الشعري فتتلخص الفاجعة في بضعة أبيات عن فراق الأحبة لا أكثر من مثيلاتها في التراث الشعري العربي كما ونوعا، تنتهي بأبيات لمدح النبي الأكرم(صلى الله عليه واله وسلم) في نوع من الاضطراب والتخلخل يسيطر على الشاعر بحيث يُنقّله بين موضوعات لا تربطها علاقات سببية من أي نوع، وعلى غرار ما سبق لشمس الدين الكوفي أيضا : [9ص53-54]

بَانُوْا وَلِيْ أَدْمُعٌ فِي الخَدِّ تَشْتَبِكُ ... وَلَوْعَةٌ فِي مَجَالِ الصَّدْرِ تَعْتَرِكُ
بِالرَّغْمِ لَا بِالرِّضَا مِنِّي فِرَاقُهُمُ ... سَارُوا وَلَمْ أَدْرِ أُيَّ الأَرْضِ قَدْ سَلَكُوا
يَا صَاحِبِي مَا آحْتِيَالِي بَعْدَ بُعْدِهُمُ ... أَشِرْ عَلَيَّ فَإِنَ الرَأْيَ مُشْتَرَكُ

إلى أن يقول :

كَـــانُوا وكَانَـــتْ حُمَـــاةُ العِـــزِّ تَحْرُسُـــهُمْ ... مِـــــن الأعَـــــادِيْ فَلَمَـــــا نُكبُـــــوْا فَتَكُـــــوا
أَجَـــابَنِيْ الطَّلَـــلُ البَـــالِي ورَسْـــمُهُمُ الـــــــ ... ـــــخَالِيْ : نَعَـــمْ هَاْهُنَـــا كَـــانُوْا وقَـــدْ هَلَكُـــوْا
أَيْـــنَ الـــذَيْنَ عَلَـــى كُـــلِّ الـــوَرَى حَكَمُـــوْا؟ ... أَيْـــنَ الـــذِيْنَ آقْتَنُـــوا أيْـــنَ الـــذِيْ مَلَكُـــوْا؟
وَقَفْـــتُ مِـــنْ بَعْـــدِهِم فِـــي الـــدَّارِ أَسْـــأَلُهَا ... عَـــنْهُمْ وَعَمَّـــا حَـــوَوا فِيْهَـــا وَمَـــا مَلَكُـــوا
لَا تَحْـسَبُوْا الـدَّمْعَ مَـاْءً فِـيْ الخُـدُوْدِ جَـرَى ... وَإِنَّمَـــــا هِـــــيَ رُوْحُ الـــــصَّبِ تَنْـــــسَبِكُ

وتتساق هذه القصيدة ضمن سياق القصائد السابقة حيث اعتماد الشاعر على الرؤى البسيطة نفسها والساذجة أحيانا في التعبير عن كارثة كبيرة لم يرقَ فيها إلى مستوى تكوين رؤية كلية بمستوى الحادثة، ولشمس الدين الكوفي أيضا : [9ص64-66]

عِنْـــدِي لِأَجْـــلِ فِـــرَاْقِكُمْ آلَـــاْمُ ... فَإِلَـــــامَ أُعْـــــذَلُ فِـــــيْكُمُ وَأُلَـــــامُ
مَـــنْ كَـــاْنَ مِثْلِـــيَ لِلحَبِيْـــبِ مُفَارِقًـــا ... لَـــــا تَعْـــــذِلُوْهُ فَالكَلَـــــاْمُ كَلَـــــاْمُ
نِعْـــمَ المُـــسَاعِدُ دَمْعَـــيَ الجَـــاْرِيْ عَلَـــى ... خَـــــدَّيَّ إِلَّـــــا إِنَّـــــهُ نَمَّـــــامُ

إلى أن يقول :

يَـــاْ لَيْـــتَ شِـــعْرِي كَيْـــفَ حَـــاْلُ أَحِبَتِـــي ... وَبِـــــأَيِّ أَرْضٍ خَيَّمُـــــوْا وَأَقَـــــاْمُوْا
مَـــالِي أَنِـــيْسٌ غَيْـــرُ بَيْـــتٍ قَاْلَـــهُ ... صَـــبٌ رَمَتْـــهُ مِـــنْ الفِـــرَاْقِ سِـــهَاْمُ
وَاللهِ مَـــا آخْتَـــرْتُ الفِـــرَاقَ وَإِنَّمَـــا ... حَكَمَـــتْ عَلَـــيّ بِـــذَلِكَ الأَيَّـــامُ

ولا جديد في هذه القصيدة يُشار إليه أو يُتوقف عنده، فالقصيدة مبنية هي الأخرى على منوال سابقاتها من قصائد رثاء بغداد لشاعر مأساة بغداد حسبما يُسمى شمس الدين الكوفي، فالمأساة تتلخص في فراق الأحبة والكارثة بأبعادها كافة تم تقزيمها إلى حد جعلها مقابلا تاما لفراق الأحبة، بحيث إن فراق الأحبة يكفي للتعبير عن حجم المأساة لدى الشاعر فهو لم يتطرق حتى إلى الخراب المادي الذي لحق العمران في بغداد، ولا يوحي حديث الشاعر عن بغداد المهدمة بأنه عن مدينة بل يوحي بأنه يقف أصلا على أطلالٍ على طريقة الشاعر الجاهلي ليس إلا، وليس السبب في ذلك هو اعتماد البنية الأسلوبية نفسها للقصيدة العربية، لان اعتماد أسلوب مألوف لا يمنع من تضمين القصيدة رؤى وأفكارا وتصورات جديدة، ولشمس الدين الكوفي قصيدة أخرى في رثاء بغداد؛ ينظر[9ص43]

مَلَـــابِسُ الـــصَّبْرِ نُبْلِيْهَـــا وَتُبْلِيْنَـــا ... وَمُـــدَةُ الهَجْـــرِ نُفْنِيْهَـــا وَتُفْنِيْنَـــا
شَـــوْقًا إِلَـــى أَوْجُـــهٍ مُتْنَـــا بِفُرْقَتِهَـــا ... حُزْنًـــا وَكَانَـــتْ تُحَيِّيْنَـــا فَتُحْيِيْنَـــا
أَحْزَانُنَـــا بِهُـــمُ لَـــا تَنْقَـــضِي وَلَنَـــا ... شَـــوْقٌ إِلَـــى سَـــاْكِنِي يَبْـــرِيْنَ يَبْرِيْنَـــا
يَـــاْ دَهْـــرُ قَـــدْ مَـــسَّنَا مِـــنْ بَعْـــدِهِم حُـــرَقٌ ... مِـــنْ الفِـــرَاْقِ إِلَـــى التَّكْفِـــيْنِ تَكْفِيْنَـــا

إلى أن يقول فيها:

أَمْرَاْضُـــنَا مِـــنْ كَلَـــامِ الـــشَّامْتِيْنَ بِنَـــا فَهَـــــلْ زَمَـــــانٌ يُـــــشَفِّيْنَا وَيُـــــشْفِيْنَا
إِنَّـــا عِطَـــاشٌ إِلَـــى أَخْبَـــارِكُمْ فَمَتَـــى يَـــــأْتِي رَسُـــــوْلٌ يُرَوِّيْنَـــــا وَيُرْوِيْنَـــــا
بِنَـــا إِلَـــى عِـــزِّكُمْ فَقْـــرٌ وَمَـــسْكَنَةٌ فَهَـــــلْ بَـــــشِيْرٌ يُغَنِّيْنَـــــا فَيُغْنِيْنَـــــا

وهذه القصيدة لا جديد فيها هي الأخرى لا على صعيد الأسلوب ولا على صعيد تشكيل الرؤى فيما يخص الموت وهي تتمحور حول المحاور نفسها التي اندرجت فيها سابقاتها من زاوية النظر وتقزيم حجم الكارثة ليصبح مقتصرا على الأبعاد النفسية لفراق الأهل والأحبة، وما دمنا في مجال تناول شاعر مأساة بغداد فلا بد من الإشارة إلى نونيته الشهير التي يقول فيها : [9ص72–74]

إِنْ لَـــمْ تُقَـــرِّحْ أَدْمُعِـــيْ أَجْفَـــانِيْ مِـــنْ بَعْـــدِ بُعْـــدِكُمُ فَمَـــا أَجْفَـــانِي!
إِنْـــسَانُ عَيْنِـــيْ مُـــذْ تَنَـــاءَتْ دَارُكُـــم مَـــا رَاْقَـــهُ نَظَـــرٌ إِلَـــى إِنْـــسَانِ
يَـــا لَيْتَنِـــيْ قَـــدْ مُـــتُ قَبْـــلَ فِـــرَاْقِكُم وَلِـــسَاعَةِ التَّوْدِيْـــعِ لَـــا أَحْيَـــانِي
مَـــاْلِيْ وَلِلأَيَّـــامِ شَـــتَّتَ صَـــرْفُهَا أَهْلِـــيْ وَخَلَّـــانِيْ بِلَـــا خِلَـــانِ

ونحن لا ننكر صدق العاطفة التي تنطوي عليها هذه القصائد، ولكن صدق العاطفة لا يكفي وحده لتكوين رؤى متقدمة حول الفاجعة، إذ إن هذه القصائد قد عكست مستوى تمثل الشعراء لهذه الواقعة الكبيرة ومستوى تفاعلهم معها، وانعكاسها على تفكيرهم، "وتدور جل قصائد الرثاء[رثاء المدن] على رثاء الأحبة وارتحالهم وخلو ديارهم منهم، ولا تخفى الصلة بين المكان وأهله، ورثاء المكان إنما يكون بإقفاره من أهله وخراب معالمه، أو تسلط أجنبي عليه، وزوال سلطان أهله، وهذا ما رأيناه في مراثي الدول"[4ص106–107]' وعلى الرغم من الصلة بين المكان وأهله، لكن هذا لا يمنح الشاعر الحق في اختزال المكان بأهله فقط وهو ما قام به شاعر مأساة بغداد شمس الدين الكوفي.

ومن قصائد رثاء بغداد قصيدة لتقي الدين إسماعيل علي بن إبراهيم بن أبي اليسر شاكر عبد الله التنوخي:[10: 7 /51–52]

لِـــسَائِلِ الـــدَّمْعِ عَـــنْ بَغْـــدَادَ أَخْبَـــارُ فَمَـــا وُقُوْفُـــكَ وَالأَحْبَـــابُ قَـــدْ سَـــاْرُوا؟
يَـــاْ زَاْئِـــرِيْنَ إِلَـــى الـــزَّوْرَاءِ لَـــا تَفِـــدُوْا فَمَـــا بِـــذَاكَ الحِمَـــى وَالـــدَّارِ دَيَّـــارُ
تَـــاجُ الخِلَافَـــةِ وَالرَّبْـــعِ الـــذِّيْ شَـــرُفَتْ بِـــهِ المَعَـــالِمُ قَـــدْ عَفَّـــاهُ إِقْفَـــارُ
أَضْـــحَى لِعَطْـــفِ البِلَـــى فِـــي رَبْعِـــهِ أَثَـــرٌ وَلِلـــدَّمُوْعِ عَلَـــى الآثَـــارِ آثَـــارُ
يَـــا نَـــارَ قَلْبِـــي مِـــنْ نَـــارٍ لِحَـــرْبِ وَغَـــىً شَـــبَّتْ عَلَيْـــهِ وَوَافَـــى الرَّبْـــعَ إِعْـــصَارُ
عَلَـــا الـــصَّلِيْبُ عَلَـــى أَعْلَـــى مَنَابِرِهَـــا وَقَـــاْمَ بِـــالأَمْرِ مَـــنْ يَحْوِيْـــهِ زُنَّـــارُ

إلى أن يقول :

يَالَلرِجَـــــالِ لِأَحْـــــدَاثٍ تُحَـــــدِّثُنَا بِمَـــا غَـــدَا فِيْـــهِ إِعْـــذَارٌ وَإِنْـــذَارُ
مِـــنْ بَعْـــدِ أَسْـــرِ بَنِـــي العَبَّـــاسِ كُلِهُـــمُ فَلَـــا أَنَـــارَ لِوَجْـــهِ الـــصُّبْحِ إِسْـــفَارُ

مَـــا رَاْقَ لِـــيْ قَـــطُّ شَـــيءٌ بَعْـــدَ ذِكْـــرِهُمُ ... إلَّـــــا أحَادِيْـــــثُ أرْوِيْهَـــــا وَأذْكَـــــارُ
لَـــمْ يَبْـــقَ لِلـــدِّيْنِ وَالـــدُّنْيَا وَقَـــدْ ذَهَبُـــوا ... شَـــوْقٌ لِمَجْـــدٍ وَقَـــدْ بَـــانُوْا وَقَـــدْ بَـــارُوا
إنَّ القِيَامَـــةَ فِـــيْ بَغْـــدَادَ قَـــدْ وُجِـــدَتْ ... وَحَـــــدَّهَا حِـــــيْنَ لِلإقْبَـــــالِ إدْبَـــــارُ
آلُ النَّبِـــيِّ وَأَهْـــلُ العِلْـــمِ قَـــدْ سُـــبِيُوا ... فَمَـــا تُـــرَى بَعْـــدَهُم تَحْوِيْـــهِ أمْـــصَارُ
مَـــا كُنْـــتُ آمُـــلُ أنْ أبْقَـــى وَقَـــدْ ذَهَبُـــوا ... لَكِـــنْ أَبَـــى دُوْنَ مَـــا أخْتَـــارُ أقْـــدَارُ

تتوزع رؤية الموت في هذه القصيدة على منحيين الأول: (ذاتي/ شخصي) يكشف عن انعكاس الأزمة على نفس الشاعر، أما الآخر فهو يستند إلى المخزون الثقافي الديني في قوله:

**{ إنَّ القِيَامَةَ فِيْ بَغْدَادَ قَدْ وُجِدَتْ }**

فيما تتراوح بقية صور القصيدة بين الوقوف على ديار الأحبة ومساءلتها عنهم وآثار الحرب والمآسي التي ضربت البلاد اثر غزو المغول وصولا إلى تجسيد مقاطع من الخراب الذي أحدثته الواقعة.

لا يمكن القول عن هذه القصيدة أيضا انها اشتملت على تصور خاص ومحدد للموت أو رؤية مستقلة، لان الموت تم تناوله عبر تناول الآثار المادية المرتبة على الغزو وليس عبر تمثل المفهوم وإسقاط الواقعة الحياتية على المفاهيم الذهنية وانعكاسها فيها.

ولعلي بن ممدود بن مسعود السنجاري قصيدة رثى بها بغداد يقول في مطلعها : [11:20/141-142]

دَارُ الأحِبَـــــةِ بِـــــالزَّوْرَاءِ حَيَّـــــاكِ ... وَجَـــــادَكِ المُـــــزْنُ هَطَّـــــالاً وَرَوَّاكِ
كَـــمْ قَـــدْ جَنَيْنَـــا ثِمَـــارَ الوَصْـــلِ فِيْـــكِ وَكَـــمْ ... فُزْنَـــا بِنَيْـــلِ المُنَـــى مِـــنْ قُـــرْبِ سُـــكْنَاكِ
يَـــا دَارُ عَهْـــدِيَ بِـــشَمْلِ القَـــوْمِ مُجْتَمِـــعٌ ... فِـــي سَـــاحَتَيْكِ وَبَـــدْرُ الـــتَّمِّ يَغْـــشَاكِ
وَأَنْـــتِ بِالـــسَّعْدِ وَالإقْبَـــالِ ضَـــاحِكَةٌ ... فَمَـــا الـــذِيْ أضْـــحَكَ الـــشَّانِي وَأَبْكَـــاكِ؟
وَأَيْـــنَ مَـــنْ كَانَـــتْ الأيَّـــامُ مُـــشْرِقَةً ... بِنُـــوْرِهُم وَإلَـــيْهُم مُـــشْتَكَى الـــشَّاكِي؟
وَأَيْـــنَ تِلْـــكَ النُّجُـــوْمُ الزَّاهِـــرَاتُ لَنَـــا؟ ... تَـــرَى الـــذِيْ كَـــأَنَ أَبْلَـــاهُنَّ أبْلَـــاكِ؟

ويفتتح الشاعر قصيدته بمشهد التساؤل المنفتح على سلسلة متواصلة من الأسئلة اللانهائية ولا جواب عليها ولكنها محض خلجات ومشاعر تغلب الشاعر على نفسه ويبوح بها شعراً، والوقوف على الديار ومناداتها تقليد معروف ومشهد قديم متداول في الشعر العربي منذ أقدم العصور...إلا إن الشاعر يخلص في هذا النص إلى اصطناع جواب على لسان المدينة المرثية يبين واقع الأمر ليعود بعد ذلك لإكمال حواريته الطويلة وبث أشجانه وآلامه يقول:[11:20/142]

أَجَابَـــتْ الـــدَّارُ وَالأطْيَـــارُ صَـــادِحَةٌ ... فِيْهَـــا وَكُـــلٌّ عَلَيْهَـــا نَـــائِحٌ بَـــاْكِي
أخْنَـــتْ عَلَـــيْهِمْ صُـــرُوْفُ الـــدَّهْرِ فَـــافْتَرَقُوا ... وَأصْـــبَحُوا عِبْـــرَةً يَحْكِـــيْهُمُ الحَـــاْكِي
يَـــا دَارُ لَوْلَـــاكِ لَـــمْ أبْـــكِ الرّسُـــومِ وَلَـــمْ ... أَسّـــحَ دَمْعِـــي عَلَـــى الخَـــدَيْنِ لَوْلَـــاْكِ

أقْـــسَمْتُ يَـــا دَارُ بِـــالقَوْمِ الـــذِيْنَ هُـــمُ ... كَـــانُوا مَعَـــانِي بَنِـــي الـــدُّنْيَا وَمَعْنَـــاكِ
بِـــاللهِ بِـــاللهِ يَـــا أيَّـــامَ وَصْـــلِهُمُ ... عُـــوْدِي كَمَـــا كُنْـــتِ إنَّ القَلْـــبَ يَهْـــوَاكِ
يَـــا ارْضَ بَغْـــدَادَ لَـــا كَـــانَ آمِـــرؤٌ أَبَـــدًا ... إلَـــى سِـــوَاكِ مِـــنْ البُلْـــدَانِ سَـــاوَاكِ

ولاشيء جديد أيضا يُذكر في هذه القصيدة لان صوت البكاء فيها يعلو على جانب الرؤية.

إن الأمثلة السابقة على طولها تكشف لنا عمق الأزمة الرؤيوية التي عاناها شعراء العصر الوسيط، فهذا شاعر مأساة بغداد وأكثر الشعراء نظما حول هذه الواقعة، لم يتضمن شعره تصورات عالية ولا رؤى عميقة فيما يخص عدوى الموت التي أصابت المدينة، بل رأينا انه اختزل المآسي إلى صورة واحدة وقام بتقزيم الجوانب المتعددة للكارثة إلى جانب واحد، وضيّقَ زواياها إلى زاوية حادة واحدة وقف فيها منكفئا على ذاته، لا يتحسس الواقعة إلا عبر الرؤية التراثية المتسللة من الماضي السحيق، ولا تتأسس القصيدة لديه بناء على انعكاس الأزمة في مرآة نفسه، بل تتأسس عبر البحث عن مماثل قريب ومشابه حد التطابق في التراث الشعري العربي.

لقد كانت فاجعة سقوط بغداد وزوال الدولة العباسية فاجعة كبيرة وهائلة كان من المفروض أن توفر مادة خصبة بالتصورات والأفكار للتعبير عنها، إلان ضيق الأفق وضعف الموهبة وبساطة الإمكانيات الشعرية حال دون ذلك وأدى إلى اختزال الواقعة وتبسيطها وحتى تسخيفها أحيانا، فعلى الرغم من صدق العاطفة إلا إننا لا نشعر بالتعاطف مع الشعراء بسبب سذاجة الصور، وبساطة الأخيلة، وضعف القابليات، وهو أمر أضاع فرصة كبيرة، إذ لو قُيض لتلك الحادثة شعراء من العيار الثقيل لكنا اليوم أمام نماذج خالدة من الشعر ولكن عدوى الانهيار أصابت الجميع على قدم المساواة وأثّرت على كل الفعاليات من ضمنها الفعاليات الأدبية فأحالتها إلى ركام من التقليد والتبعية.

أما النموذج الثاني الذي يُفترض أن تُدرس فيه رؤية الموت من منظور كلي فهو شعر الرثاء الذي كُتب بحق الإمام الحسين(عليه السلام) في هذا العصر، فقد شهد هذا العصر عددا كبيرا من قصائد الرثاء نُظمت بحق الإمام الحسين (عليه السلام) وواقعة الطف وأهل البيت (عليهم السلام) تناولت الواقعة من عدة أبعاد وتضمنت رؤى الشعراء حول الموت، وقد سبقت الإشارة إلى أن شعر رثاء الإمام الحسين (عليه السلام) يجب أن تُدرس رؤية الموت فيه من منظور كلي، لان الإمام الحسين (عليه السلام) رمز كلي يمثل طموحات إنسانية عامة، وهو ما سنحاول تبينه عبر الصفحات القادمة، يقول بهاء الدين الاربلي في رثاء الأمام الحسين (عليه السلام):[12ص99-100]

إنَّ فِـــي الـــرُّزْءِ بِالحُـــسَيْنِ الـــشَّهِيْدِ ... لَعَنَـــاءً يُـــوْدِيْ بِقَلْـــبِ الجَلِيْـــدِ
إنَّ رُزْءَ الحُـــسَيْنِ أَضْـــرَمَ نَـــارًا ... لَـــا تَنِـــيْ فِـــيْ القُلُـــوْبِ ذَاتَ وَقُـــوْدِ
حَـــادِثٌ أَحْـــزَنَ الـــوَلِيَّ وَأَضْـــنَاهُ ... وَخَطْـــبٌ أَقَـــرَّ عَـــيْنَ الحَـــسُوْدِ
يَـــا لَهَـــا نَكْبَـــةً أَبَاحَـــتْ حِمَـــى الـــصَّبْرِ ... وَأَجْـــرَتْ مَـــدَامِعًا فِـــي الخُـــدُودِ
وَمُـــصَابًا غَـــمَّ البَرِيَّـــةَ بِـــالحُزْنِ ... وَأَغْـــوَى العُيُـــونَ بِالتَّـــسْهِيدِ
يَـــا قَتِيلًـــا ثَـــوَى بِقَتْلِـــهِ الـــدِّيْنُ ... وَأَمْـــسَى الإِسْـــلَامُ وَاهِـــيْ العَمُـــوْدِ
وَوَحِيـــدًا فِـــي مَعْـــشَرٍ مِـــنْ عَـــدُوٍّ ... لَهْـــفَ نَفْـــسِي عَلَـــى الفَرِيْـــدِ الوَحِيْـــدِ

وَنَزِيْفًـــا يَـــسْقِي المَنِيَّـــةَ صِـــرْفًا ظَامِيًـــا يَرْتَـــوِي بِمَـــاءِ الوَرِيْـــدِ
وَصَـــرِيْعًا تَبْكِـــي الـــسَّمَاءُ عَلَيْـــهِ فَتُـــرَوِّي بِالـــدَّمْعِ ظَّـــامِي الـــصَّعِيدِ
وَغَرِيبًـــا بَـــيْنَ الأَعَـــادِي يُعَـــانِي مِـــنْهُمُ مَـــا يُـــشِيْبُ رَأْسَ الوَلِيـــدِ
قَتَلُـــوْهُ مَـــعْ عِلمِهِـــمْ أَنَّـــهُ خَيْـــرُ الـــ ـــبَرَايَا مِـــنْ سَـــيِّدٍ وَمَـــسُوْدِ

يتميز هذا النص بميزة جديدة فيما يتعلق بشعر الرثاء الذي تناول الموت من منظور كلي، هي الولـوج المباشر إلى موضوع القصيدة المركزي وهو مأساة الطف، فهو لم يتوسل المقدمات الطللية أو الخمرية أو غيرهـا من المقدمات التي يزخر بها شعر هذا العصر، ويميز هذه القصيدة أيضا استخدام عدد من الرموز العامة التي تحيل التجربة إلى منظور أكثر سعة من المنظور الذاتي فهو وإن عبّر عن انعكاس الواقعة عليه كذات شاعرة في قوله :

إنَّ فِـــي الـــرُّزْءِ بِالحُـــسَيْنِ الـــشَّهِيْدِ لَعَنَـــاءً يُـــوْدِيْ بِقَلْـــبِ الجَلِيْـــدِ

ولكنه عدل إلى استخدام رموز عامة وجماعية للتعبير عن رؤيته للواقعة حيث يقول :

إنَّ رُزْءَ الحُـــسَيْنِ أَضْـــرَمَ نَـــارًا لَـــا تَنِـــيْ فِـــيْ القُلُـــوْبِ ذَاتَ وَقُـــوْدِ

فقوله :هز ركنا وغم البرية وثوى بقتله الدين تعبر عن رؤية للموت مبنية على منظور كلي نوعا ما وهو أمر لا يمكن الركون إليه بشكل تام لان هذه الرموز الدينية كانت مشاعا مشتركا بين الشعراء في هذا العصر مـن جهة على الرغم من الإمام الحسين لا يعد رمزا دينيا اعتياديا بل هو رمز فائق ومتجاوز للحدود الدينيـة والقوميـة باتجاه أفق إنساني رحب.

وللشاعر رجب البرسي في رثاء الإمام الحسين (عليه السلام) : [13ص61]

دَمْـــعٌ يُبَـــدِدُهُ مُقِـــيْمٌ نَـــازِحُ وَدَمٌ يُبَـــدِدهُ مُقِـــيْمٌ نَـــازِحُ
فَـــالرُّوْحُ إنْ فَاضَـــتْ أَفَاضَـــتْ عَبْـــرَةً صَـــابَتْ فَكَفْكَفَهَـــا مُـــصَابٌ فَـــادِحُ
وَالعَـــيْنُ إنْ أَمْـــسَتْ بِـــدَمْعٍ فَجِّـــرَتْ فَجَـــرَتْ يَنَـــابِيْعٌ هُنَـــاكَ مَـــوَانِحُ
أَظْهَـــرْتَ مَكْنُـــوْنَ الـــشُّجُونِ فَكُلَّمَـــا شَـــبَحَ الأَمُـــوْنُ شَـــجَا الحَـــرُوْنُ الجَـــامِحُ
فَعَلَـــيّ قَـــدْ جُعِـــلَ الأَسَـــى تَجْدِيْـــدُهُ وَقْفًـــا يُـــضَاقُ بِـــهِ الرَّحِيـــبُ الفَاسِـــحُ
نَـــسَجَ البِلَـــى مِنْـــهُ مُحَقِّـــقُ حُـــسْنِهِ فَفَنَـــاؤهُ مَـــاحِيْ الرَّسُـــوْمِ المَاسِـــحُ
فَطَفِقْـــتُ أَنْدُبُـــهُ رَهِـــيْنِ صَـــبَابَةٍ عَـــدِمَ الرَّقِيْـــقَ وَغَـــابَ عَنْـــهُ النَّاصِـــحُ
وَأَقُـــولُ وَالزَّفَـــرَاتُ تُـــذْكِي جَـــذْوَةً بَـــيْنَ الـــضُّلُوعِ لَهَـــا لَهِيْـــبٌ لَـــافِحُ
لَـــا غَـــرْوَ إنْ غَـــدَرَ الزَّمَـــانُ بِأَهْلِـــهِ وَجَفَـــا وَحَـــانَ وَخَـــانَ طَـــرْفٌ لَـــامِحُ
فَلَقَـــد غَـــوَى فِـــي ظُلْـــمِ آلِ مُحَمَـــدٍ وَعَـــوَى عَلَـــيْهِم مِنْـــهُ كَلْـــبٌ نَـــابِحُ
وَسَـــطَا عَلَـــى البَـــازِي غُـــرَابٌ أَسْـــحَمٌ وَشَـــبَا عَلَـــى الأَشْـــبَالِ زِنْـــجٌ ضَـــابِحُ
وَتَطَـــاوَلَ الكَلْـــبُ العَقُـــوْرُ فَـــصَاوَلَ الـــ ـــأَسَدَ الهَـــصُوْرَ وَذَاكَ أَمْـــرٌ فَـــادِحُ

تدور هذه القصيدة أيضا حول انعكاس الواقعة على ذات الشاعر أيضا ولا شيء عميق فيما يخص الرؤيـــة، بله أنها رؤية غائمة غير واضحة بسبب إغراقها بالأسلوب البديعي الذي تحول مراعاته من دون إمكانية بناء رؤى فكرية متقدمة ومهمة، فانشغال الشاعر بالزخارف اللفظية والبديعية أحال القصيدة إلى معمار لغوي تتـــصادى فيـــه الموسيقى الداخلية عبر اعتماد تراكيب لغوية متشابهة إيقاعيا، و قد يكون الـــشاعر أراد المزاوجـــة بـــين التـــأثير الموسيقي والتأثير المفهومي للقضية فاعتمد هذا النمط من البناء الموسقي .

إن هذا الاشتغال البديعي على الزخارف اللفظية يحد من تركيز الشاعر على تكوين رؤى وأفكار عميقة عن موضوع ما(لأنه يستحوذ على اهتمامه بشكل كبير و يحيل العملية الإبداعية إلى التركيز على البنـــاء البـــديعي مـــا يتسبب بخلة القصيدة من الرؤى الإبداعية لاسيما إذا أخذنا بنظر الاعتبار ضعف الأساس الفكري والبنيـــة الثقافيـــة للشاعر العربي في هذه الفترة)، وهو أمر يكشف عن مدى تأثير الثقافة الشائعة في ذلك العـــصر علـــى الـــشعراء، فالنظام البديعي(في هذه الفترة بالتحديد) هذا يحول مركز الاهتمام من صناعة الرؤية وتكوين الفكرة إلـــى صـــياغة اللفظ وتكوين المقطع الصوتي، وتشكيل ذلك كله ضمن الإطار الشعري، يُضاف إلى ذلك ما يتـــصف بـــه شـــعراء العصر الوسيط من ضعف الموهبة وضيق الثقافة. إن هذه الأمور وغيرها من مثيلاتها كانت حائلا بـــين الـــشاعر وبين الوصول إلى تصور عميق ومهم للموت في العصر الوسيط.

والخليعي شاعر مهم آخر من شعراء العصر الوسيط أكثر من رثاء الإمام الحسين (عليه السلام) يقول فـــي إحدى قصائده :[14ص83]

**هَـــــاجَ لِـــــي نَـــــوْحُ الحَمَـــــامِ فَـــــــرْطَ وَجْـــــــدِي وَغَرَامِـــــــــي**
**وَجَـــــــرَى دَمْعِـــــــي لِتِـــــــذْكَا رِ الغَرِيـــــــــــبِ المُـــــــــــسْتَظَامِ**
**كَيْـــفَ لَـــا ابْكِـــي عَلَـــى آبْـــنِ الـــ ـــــــــــرُكْنِ وَالبَيْـــــــتِ الحَـــــــرَامِ**
**لَـــــــسْتُ أنْـــــــسَاهُ طَرِيْحًـــــــا يَـــــــــــشْتَكِي حَـــــــــــرَّ الاوَامِ**
**صَـــــــادِيًا يَـــــــرْوِي العِـــــــدَا مِـــــنْ نَحْـــــرِهِ حَـــــرَّ الحُـــــسَامِ**
**لَـــــسْتُ أنْـــــسَى طِفْلَـــــهُ المَـــــذْ بُـــــوحَ دَامِـــــي النَّحْـــــرِ ظَـــــامِي**
**لَـــــسْتُ أنْـــــسَى زَيْنَبًـــــا مَـــــــسْبِيَةَ بَـــــــيْنَ الطَّغَـــــامِ**

والخليعي هو الآخر لا يتميز كثيرا عن غيره من شعراء عصره فيما يخص الرؤى والأفكار ولا يتجـــاوز في نصه هذا وفي أكثر نصوصه الأخرى حدود تصوير الواقعة وما يحيط بها من فجائع أصابت آل البيت (علـــيهم السلام)، وهو الأسلوب التقليدي الذي دأب عليه معظم الشعراء، تحويل القصيدة إلى بكائية طويلـــة تبـــدأ بتـــصوير الشاعر حزنه الشديد في قوله :

**هَـــــاجَ لِـــــي نَـــــوْحُ الحَمَـــــامِ فَـــــــرْطَ وَجْـــــــدِي وَغَرَامِـــــــــي**

إلى أن يتحول الشاعر إلى بيـــــــــــان أسباب هذا الحـــــــزن الذي اشتمل عليه عبر تحويل صور الفاجعة إلى نص شعري، وللخيلـــعـــي قصيدة أخرى يقول فيها :[14ص165]

هَـــاجَ حُزْنِـــي وَزَادَ حَـــرَّ لَهِيبِـــي ... وَشَـــجَانِي ذِكْـــرُ القَتِيْـــلِ الغَرِيْـــبِ
وَجَفَـــتْ مُقْلَتِـــي كَرَاهَـــا وَسَـــحَّتْ ... سُـــحْبُ أَجْفَانِهَـــا بِـــدَمْعٍ سَـــكُوبِ
وَقَتِيـــلٍ لِمَـــن يُمَثِّـــلُ مَوْلَـــا ... هُ لَـــدَى الطَّـــفِ ذَا جَبِـــينٍ تَرِيـــبِ
فَـــيْضُ دَمْـــعَ عَلَـــى خُـــدُوْدٍ وَتَـــسْهَا ... دُ جُفُـــونٍ قَرْحَـــى وَطُـــولُ نَحِيـــبِ
كَرْبَلَـــا كَـــمْ تَرَكْـــتِ عِنْـــدِي كُرُوبًـــا ... بِرَزَايَـــا تُـــذِيبُ حَـــبَّ القُلُـــوبِ

وواضح مدى التشابه بين القصيدتين السابقتين من حيث مطلعها وبقية تفاصيلها فالشاعر يبدأ بعرض أسباب حزنه وذلك عبر التعرض لمواقف الفاجعة الأليمة التي وقعت لأهل البيت (عليهم السلام) يقول: [14ص166]

لَهْـــفَ قَلبِـــي لِطِفْلِـــهِ فَـــوْقَ كَفَّيْـــ ... ـــهِ بِـــصَدْرٍ ظَـــامٍ وَنَحْـــرٍ خَـــضِيبِ
وَهُـــوَ يَـــسْتَقْبِلُ الـــدِّمَاءَ وَيُلْقِيْـــ ... ـــهَا وَيُبْـــدِيْ شُـــكْرَاهُ لِلمُـــسْتَجِيْبِ
لَهْـــفَ نَفْـــسِي لِزَيْنَـــبٍ تَلطِـــمُ الوَجْـــ ... ـــهَ فَتُـــدمِي خُـــدُودَهَا بِالنُّـــدُوبِ
وَتُنَادِيـــهِ يَـــا أَخِـــي يَـــا آبِـــنَ أُمِّـــي ... يَـــا شَـــقِيْقِي أَســـلَمْتَنِي لِلخُطُـــوبِ

وهو لا يتجاوز في هذه الأبيات أيضا مدار تصوير وقائع المعركة ومجرياتها بدقة ولا يكشف عن تفكر في حقيقة الموت وطبيعته أو معاناة راسخة،بل هي تشي بوضوح ببساطة الأفكار وسذاجة التصورات.

وله أيضا :[14ص224]

العَـــيْنُ عَبْـــرَى دَمْعُهَـــا مَـــسْفُوحُ ... وَالقَلْـــبُ مِـــن الَـــمِ الأَسَـــى مَقْـــرُوحُ
مَـــا عُـــذرُ مِثْلِـــي يَـــوْمَ عَاشُـــورا إِذَا ... لَـــمْ ابْـــكِ آلَ مُحَمَّـــدٍ وَأَنُـــوحُ
أَمْ كَيـــفَ لَـــا ابْكِـــي الحُـــسَينَ وَقَـــدْ غَـــدَا ... شِـــلْوًا بِـــأَرْضِ الطَّـــفِ وَهُـــوَ ذَبِـــيحُ
وَالطَّـــاهِرَاتُ حَوَاسِـــرٌ مِـــن حَوْلِـــهِ ... كُـــلٌ تَنُـــوحُ وَدَمعُهَـــا مَـــسفُوحُ
هَـــذِي تَقُـــولُ أَخِـــي وَهَـــذِي وَالِـــدِي ... وَمِـــنْ الرَّزَايَـــا قَلبُهَـــا مَقْـــرُوحُ

إن رؤية الموت تتلخص لدى الخليعي بالبكاء فقط، فلا شيء مثير في هذه الواقعة للفكر. لقد أُحيلت واقعة الطف في شعر العصر الوسيط إلى داعٍ للحزن المفرغ من الفكر وهو أمر عجيب أن يتحول الموت – وليس أي موت – إلى داع للبكاء من دون التفكر إذ إن الموت منذ عصور الإنسانية المتقدمة كان مدعاة للتفكير والتأمل وإثارة التساؤل والدهشة والحيرة ولكن شعر العصر الوسيط لا يقف عند هذه العتبة بل لا يشعر بوجودها من الأصل أحيانا ويحيل الأمر برمته إلى بكاء على الميت وهو هنا في قضية الإمام الحسين (عليه السلام)لا يتجاوز البكاء أما فيما يخص غيره من المرثيين فقد يتضمن الرثاء نوعا من الترحم عليهم بشكل متساوق تماما مع الإرشادات الدينية.

ولا يمكن إغفال دور التلقي في توجيه النصوص الأدبية، إذ إن الإنسان العربي المتلقي لهذا الشعر في عصره كان قد حدد سلفا الفاعلية من واقعة الإمام الحسين (عليه السلام) بأنها للبكاء والحزن فقط لا للتفكر والاعتبار لان الأمة لم تستفد من الطاقة المنبعثة من الثورة نفسها بسبب عدم إعمال الفكر في حيثياتها وأسبابها

ونتائجها وهو أمر لا يمكن إغفال دور السلطة الحاكمة فيه فقد عملت على تحويل الانتباه الجماهيري وتركيزه حول الأبعاد الفجائعية والجنائزية للواقعة من دون التركيز على القيم الفكرية والثورية التي قد تتسرب إلى نفوس الجماهير وتحرضهم – إيمانا منهم بها – على الثورة والتمرد على السلطات السياسية الحاكمة، إن هذا النمط من الشعر لا ينسجم مع وعي الجماهير فحسب بل ينسجم مع طموحات السلطات الحاكمة من اجل تمييع القضية.

ولكننا نلمح لابن العرندس الحلي أبياتا تبين اثر الموت في هذه الواقعة على الكون وهو وإن كان سطحيا مباشرا في أسلوبه إلا انه خرج عن منهج بقية الشعراء في تصوير اثر الواقعة على أنفسهم فقط إذ يقول:[15ص126–127]

**يَا نَكبَةً خَضعَتْ لَهَا الأقْطَابُ وَالـ ... سُيّاحُ والأبْدَالُ وَالأوتَادُ**
**ورَزِيةً مِنْهَا تَأوّهَ آدَمٌ ... وَالخَلْقُ ذَرٌ صَامِتٌ وَجَمَادُ**
**وَفَجِيعَةً لَمْ تُنْسِهَا السَّاعَاتُ وَالـ ... أيَّامُ وَالأعوَامُ وَالآبَادُ**
**وَقَطِيْعَةً بَكَتْ السَّمَوَاتُ العُلَى ... مِنْهَا وَضَجَّتْ أبحُرٌ وَبِلَادُ**
**وَعَظِيمَةً دِيْنُ الإلهِ لأجْلِهَا ... يُهْوِي القِوَى وَعَمُودُهَا مَيَّادُ**

لقد كشف الشاعر في هذه القصيدة عن رؤيته عبر استخدام ألفاظ تشير إلى أن الفاجعة قد أطبقت على الكون كله ولكن هذا لا يكفي لإثبات الرأي القائل بخصوصية الرؤية لان الشاعر نفسه تفاوت في طرحه داخل القصيدة الواحدة ينظر[15ص123–130]من تصوير واقع المعركة واعتماد أسلوب الإثارة وتحفيز المشاعر وصولا إلى تضمين الألفاظ والشعائر والطقوس العبادية في قوله :[15ص127]

**يَبْكِيْهُمُ التَّسبِيحُ والتَّحْمِيدُ والتَّـ ... ـمْجِيدُ والأذْكَارُ وَالأوْرَادُ**
**تَبكِيهِمُ الصَّلَوَاتُ وَالخَلَوَاتُ والـ ... ـفَلَوَاتُ والزَّهَّادُ وَالعُبَّادُ**

يمكن الخلوص مما تقدم إلى أن شعر الرثاء المكتوب بحق الإمام الحسين (عليه السلام)، والشعر المكتوب في رثاء بغداد اثر سقوطها على يد المغول لم يكن بمنأى عن عوامل التعرية الفنية التي أصابت القصيدة العربية في هذه الفترة فأحالتها إلى ركام لغوي متماسك لكنه لا يقدم جديدا على صعيد المعنى والأفكار والرؤى أما رؤى الموت في هذه الموضوعات المعقدة، فلم تكن هي الأخرى ممتازة ولا مبتكرة ،بل جاءت مكرورة مبتذلة وبسيطة ساذجة لا تكشف إلا عن ابسط مستوى من مستويات الفهم والتفكير الذي يقنع بأبسط التسويغات واقل نتائج البحث إلى الحد الذي قزّمَ هذه القضايا والحوادث وأحالها إلى مواقف بسيطة يُعبَّر عنها باستخدام معجم لغوي وخزين رؤيوي تقليدي قاصر عن أداء دوره في كشف باطن الحادثة وقاعها البعيد.

**CONFLICT OF INTERESTS**
**There are no conflicts of interest**

## المصادر والمراجع

1. خطاب الموت في شعر المتنبي بين التقليد وامارة الغايات العليا، ثائر سمير حسن الشمري، مجلة بابل للعلوم الإنسانية، **المجلد** /19، **العدد** /3 / **ايلول** / 2011.
2. المدينة في الشعر العربي المعاصر، مختار علي أبو غالي، سلسلة عالم المعرفة)د.ط)، 1995م.
3. رثاء المدن والممالك في الشعر الأندلسي، مهجة أمين باشا، شراع للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط2003،1م.
4. رثاء غير الإنسان في الشعر العباسي، عبد الله عبد الرحيم السوداني، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الامارت العربية المتحدة، ط1، 1999م.
5. دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر، قادة عقاق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د.ط)، 2001م.
6. أدب الطف أو شعراء الشيعة، جواد شبر، منشورات الاعلمي، بيروت لبنان، ط1969،1م.
7. اتجاهات الشعر العربي في العصر الوسيط في الحلة، رسالة ماجستير، مثنى حسن عبود الخفاجي، جامعة بابل، كلية التربية الأساسية، 2012م.
8. الكامل في التاريخ، ابن الأثير دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ط.)،1966م.
9. ديوان شمس الدين الكوفي 623-675هـ،تحقيق:ناظم رشيد، دار الضياء،عمان الاردن، ط2006،1م.
10. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ابن تغري بردي، المؤسسة المصرية العامة، (د.ط)، (د.ت).
11. عيون التواريخ، محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق: فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم داوود، دار الرشيد للنشر، بغداد/العراق،(د.ط.)،1980م.
12. ديوان بهاء الدين الاربلي، ت:ادهم حمادي ذياب، مكتبة النعيمي، بغداد، (د.ط.)
13. ديوان الحافظ رجب البرسي الحلي، ت: حيدر عبد الرسول عوض، مجمع الإمام الحسين العلمي لتحقيق تراث أهل البيت، ط2015،1م.
14. ديوان الخليعي، جمع :الشيخ يحيى السماوي، ت:سعد الحداد، دار الضياء للطباعة والتصميم، النجف الاشرف، ط1،2010 م.
15. ديوان صالح بن العرندس الحلي، صنعة: سعد الحداد، مطبعة الكوثر، قم المقدسة، إيران، ط1، 2017م.